شعر الاعتزال السياسي

في العصر الأموي

الدكتور باقر عبدالغني
استاذ مساعد في دائرة اللغة العربية

شغل المسلمون بالفتوحات لنشر الرسالة في الارض بعد أن استتب الامر لدولة الاسلام حين قضت على حركة الردّة • وغطى التضامن الديني على ما كان من خلاف في الرأي بين قادة الدولة ورجالها الكبار ، اذ وجدوا أنفسهم أمام مهمة خطيرة ، مهمة نشر الرسالة • وكان مما شدّ من أواصر هذا التضامن والتعاضد ان المسؤولين الاوائل في هذه الدولة قد شاوروا الناس في الامور وعملوا بالنصيحة المخلصة وأفادوا مما يعرف في اعراف السياسة المعاصرة بالنقد البناء • يضاف الى ذلك ما تحلوا به من صفات أثقلت موازينهم عند تقدير الرجال والاعمال • فأنكروا ذاتهم وأخذوا أنفسهم وذويهم أخذا شديدا لا تثنيه قرابة ولا تلوى به عصبيّة الامر الذي جنبهم كثيرا من مواطن الظنون والريبة والشبهات وحمل الناس على الوثوق بهم والاطمئنان اليهم والطاعة لهم والالتفاف حولهم قادة لم يخرجوا في أحكامهم وتصريفهم للامور عن جادة الاسلام • وكان خير ذلك فتحا واسعا للاسلام وفيئا كثيرا على المسلمين واستقرارا وأمنا انتظمت أمور الامة في ظلاله • سواء ما كان بينها وبين ولاة الامر أو ما كان بين أفرادها على اختلاف شعوبهم وقبائلهم •

ومضى الامر على هذا طوال ما يقرب من ربع قرن • ثم كان ان هدأت الفتوحات الاولى في عهد عثمان واستقرت العرب في الامصار بعد أن تحملوا من عبء الجهاد والفتح الجزء الاكبر • ويبدو ان عرب الامصار قد قدروا ، وهم على حق كبير في ذلك ، انهم يمثلون المجال الحيوي لهذه الدولة • فهم الذين مكنوا لها من هذا الامتداد وهم الذين هيئوا لها هذه الموارد وملأوا الحجاز بخيرات الفيء والفتح • ثم هم الى ذلك حراسها في الثغور • وحواضرهم

الكبرى هي التي تتكفل باعداد الذخائر الانسانية والمادية سواء في وقت السلم أو عند المضي لفتح جديد • وبدافع من شعورهم هذا وما رتبوا عليه من مسؤولية أدبية ، شرع عرب الامصار يراقبون سيرة المسؤولين الكبار في الدولة ، خاصة حين أتاحت لهم هدأة الفتوحات فرصة التفكير في شؤونهم الداخلية ومراقبة سيرها وسيرة القائمين على تصريفها •

وهكذا اتجهت الانظار نحو المدينة ومقام الخلافة فيها • وشرع المعنيون بشؤون الدولة وسياستها يراقبون سيرة ولاتهم في الحكم ابتداء من الخليفة • ويتعرضون لهم بالنقد والتجريح • ويطالبون بتغيير الحال والرجال حين يرون ما يدعو الى هذا التغيير ويجهرون بالمعارضة حين لا يسمع الهمس بها ويهددون بالثورة حين لا ينفع النصح ولا تجدي المهادنة • ومن المؤسف أن يجد الذين نصبوا أنفسهم لهذه المراقبة هنات في سياسة عثمان فلما طولب الخليفة باصلاح ما نعى عليه حالت أسباب بينه وبين اصلاح الامور فاشتدت النقمة عليه ثم ما لبثت هذه النقمة أن تحولت الى ثورة أودت بحياته كما هو معروف • ولسنا هنا في سبيل التفصيل في حوادث هذه المحنة فقد حفلت بأخبارها كتب التاريخ قديما وحديثا ولكننا نكتفي بالقول انها كانت ناب الشر الذي ضرّس هذه الامة وجزّأها أوصالا وأثخنها بالجراح وعاد بها سيرتها الاولى تتوزعها الاحزاب ، وتتناهبها الفرقة ويتقاذفها دم وحقد وغلّ •

وكان أن اختير علي للخلافة بعد عثمان وعمل على اصلاح ما خربته المحنة الخطيرة التي تعرضت لها الامة • وكان مما عزم عليه في هذا الشأن عزل الولاة الذين كانوا طرفا في هذه المحنة ، من قريب أو من بعيد ، بسبب ممالأتهم للعهد الذي أزيح مغضوبا عليه • فأبى معاوية أن يعتزل وينصاع لاوامر الدولة المركزية وأعلن خلافه على الخليفة الجديد وراح يطالبه بالاقتصاص من قتلة عثمان ، ومن الجدير بالملاحظة هنا ان معاوية المعتصم بالشام ، لا يقر للخليفة بسلطان عليه حين يأبى الامتثال لامره بعزله ولكنه في الوقت نفسه يرى فيه خليفة حين يثير موضوع الاقتصاص • ومهما يكن من أمر فقد بات معاوية في الشام يحضر النفوس ويحفزها لامر بيّته في نفسه وستكشف عنه الحوادث بعد حين متخذا لتحقيقه من دم

الخليفة عثمان حجة وذريعة . ثم خرج طلحة والزبير وعائشة يدعون لمثل ما دعا اليه صاحبهم في الشام فكان ما كان من معركة الجمل وما راح فيهـا من آلاف الضحايا وعلى رأسها طلحة والزبير . وظل معاوية في الشام يلوّح بقميص قريبه الشهيد وهو من قعدت به قرابته عن نجدته وتريثت همته فلم يلحق بأهل الجمل وقد خرجوا لمثل ما نادى به . فلم يكن للامام علي الا أن يتجهز لحربه فكانت معركة صِفّين وما انتهت اليه من قصة التحكيم وغضبة الخوارج ومعارك النهروان واغتيال علي وصفاء الميدان لمعاوية وقيام دولة الشام .

كان من حصيلة هذا الشر أن قتل خليفتان وشيخان من شيوخ الاسلام لا يجهل مكان أحد منهم أو ينكر جهاده في سبيل الرسالة وقربه أو قرابته من صاحبها الاكرم . وكان من حصاد هذه النار ان راحت آلاف من الضحايا لم يفقد مثلها الاسلام في فتوحاته . ولئن كان قتلى الاسلام قد احتسبوا شهداء في سبيل الله فقتلى الجمل وصفين والنهروان لم يحتسبوا الا في سبيل الثأر والضغينة من الاطراف المتحاربة دون اعتبار لحق بهذا وباطل ذاك .

ونحن لو تتبعنا هذه المعارك المتلاحقة في سيرها الجغرافي لظهر لنا عظم العجاجة التي أثارتها في طول البلاد وعرضها . فقد انحدرت من مصر وتجمعت في المدينة واخترقت الجزيرة فحطت في البصرة . ثم صعدت نحو العراق وتحفزت في الكوفة واتجهت نحو صفين وألقت برحلها في الشام فهي بهذا لم تدع ركنا من أركان الوطن العربي آنذاك الا وهزته هزا عنيفا مخلفة بين ربوعه دما وأشلاء ونوائح وحديثا تصطرع فيه الاهواء وتشتجر العواطف وتتكدس الشجون .

على أثر هذه الحوادث وفي هذا الجو المكدّر بالدماء والبغضاء قامت دولة الامويين وبات مؤسسها معاوية يدير الملك بمثل ما دبّر له أمره بالامس . يصانع الناس بالاموال ويشتري من الشعراء السنتهم ويقرب هذه العصبية ويهادن تلك ويثولب هذا على ذاك ويستعين به . حتى اذا أشرف على نهايته سعى لابنه مثل ما سعى لنفسه فصار خليفة من بعده وأمست شورى الاسلام ارثا وخلافته ملكا . واذا بالشعار الذي رفعه معاوية ، شعار الاقتصاص لعثمان ، لم يكن غير وسيلة

سياسية غايته منها أن يستحوذ على الخلافة وان يجعلها ارثا يتداوله أهله ورهطه .

وكان أول من غمته النتائج من الذين صدقوا شعار معاوية هم الاقربون من آل عثمان . فقد (قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة ، فدخل دار عثمان بن عفان فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يابنة أخي ، ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا . وأظهرنا لهم حلما تحته غضب وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد ، ومع كل انسان سيفه ، ويرى موضع أصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا . لان تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس »[1] . فمعاوية لا يملك الا ان يسلّي ابنة عثمان عن دم أبيها بصيرورة الخلافة الى واحد من أعمامها ، ولا يفوتنا أن نشير الى طبيعة الصلات التي يشير اليها معاوية والتي باتت تربط الامة بحكامها الجدد والتي تتمثل في الحلم الذي تحته غضب من جانب الحكام والذل الذي تحته حقد من جانب الامة والسيف الذي يصل بين لجانبين . وهي الصلات المتوترة الموتورة التي تميزت بها هذه الفترة والتي طالما صرّح بها الامويون قبل خصومهم . « وخطب عبدالملك على المنبر فقال : أيها الناس ان الله حدّ حدودا وفرض فروضا ، فما زلتم تزدادون في الذنب ونزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف »[2] .

ولم يقتصر أمر الخصومة الغاضبة الحاقدة الدامية على ما بين الامة وحكامها بل امتدت آثارها الى البيت المالك أيضا . اذ حمل التدافع على منصب الخلافة بعض الخلفاء والامراء على الخداع والغدر والاحتراب فيما بينهم . ومن أمثلة هذه الحوادث المؤسفة تمرد عمرو بن سعيد الاشدق في خلافة عبدالملك بن مروان اذ لم يكد الخليفة يبتعد قليلا عن عاصمته وهو في طريقه لقتال مصعب بن الزبير في العراق حتى خرج عليه الاشدق ولم تنته الازمة الا بعودة الخليفة وقتل الاشدق . وسعى الوليد بن عبدالملك لتعيين ابنه عبدالعزيز وليا للعهد مخالفا

---

١ ـ العقد الفريد ٤/٣٦٤

٢ ـ نفس المصدر ٤/٤٠١

بذلك وصية أبيه حين عهد لسليمان أخيه بالخلافة من بعده • غير ان الموت عاجل عبدالعزيز فآلت الخلافة الى سليمان • ومن الغريب ان يحاول سليمان نفس المحاولة حين رشح ابنه أيوب وهو أمر أنكره بالامس على أخيه • ومن هذه الحوادث أيضا ما جرى ليزيد بن الوليد بن عبدالملك حين خرج يثولب الناس على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك • اذ انتهى الامر بقتل الخليفة وانتقال الخلافة الى الامير الثائر •

لا شك ان هذه الخلافات الدامية التي وقعت بين أفراد البيت المالك قد تركت آثارها السيئة في نفوس الامة اذ انها قسمت الكتلة المناصرة للامويين الى أحزاب متناحرة تتجمع وراء هذا أو ذاك من أفراد البيت المرشحين أو الطامعين في الخلافة كما انها أكدت رأي المخالفين لهم ودفعتهم الى خصومة أشد حين أعطتهم دليلا جديدا وعمليا على أن الامر في نظر أفراد البيت الحاكم لا يعدو الاستحواذ على الحكم للتمتع بمغانمه • ولابد ان هذه الخلافات قد زادت في نقمة المحايدين وضيقهم بهؤلاء المتحاربين في أي صف كانوا وأي زعيم شايعوا وناصروا •

ومضت الاحزاب والشيع السياسية في اصطراعها مع الدولة وزاد عنادها وتعنتها حين زاد معاوية في يأسها من الوصول الى الحكم بعد ان شرع مبدأ وراثة الخلافة • وراحت الكتل القبلية تمدها بالعدد والروح • أما العدد فتمثله الآلاف من أبناء القبائل التي توزعت وراء هذا أو ذاك من الزعماء المتصارعين على الخلافة • واما الروح فهي تلك العصبية القبلية الموروثة التي وجدت في الحياة السياسية الجديدة متنفسا لشحنائها وحزازاتها • فهي في ظاهر الامر تناصر شعارا سياسيا وهي في باطنه تحارب كتلة قبلية مخاصمة انضوت تحت لواء شعار آخر •

وطال احتراب الطامعين بالخلافة وتمادت الفتن واستمر القتل بالناس واحتدم الجدل وكثر القول في الزعماء وتناوشتهم الالسن وتعرضت دعاواهم للنقد والتجريح وراح فريق من الامة يتدبر الامر ويرقب الحوادث ويستطلع

الاخبار ويتتبع سير المعارك ويحصي القتلى وبات يحز في نفسه ان يرى السيف يعمل في الناس وان يذهب هؤلاء فداء للمطامع الشخصية وضحية لطموح أهل البيوتات الطامعة في الملك . كان هذا الفريق رائد حركة الاعتزال السياسي .

لقد عرف الاعتزال مذهبا من مذاهب الفقه والرأي الديني . وأرخ له المؤرخون بحياة الحسن البصري وواصل بن عطاء حين اعتزل هـذا مجلس استاذه الحسن . ويبدو ان حركة الاعتزال كانت أبعد في التاريخ من عصر الحسن البصري وواصل بن عطاء . وأقرب في نشأتها الاولى الى مواضيع السياسة منها الى الدين اذ ان الفرقة الدامية التي صار اليها المسلمون ، منذ مقتل عثمان ، كانت قد بعثت في نفوس فريق من الامة ضيقا وبرما بها ووجد من أثر اعتزالها وعدم الخوض في حروبها أو الكلام فيها[٣] ولعله من الطبيعي ان لا يعدم وجود مثل هؤلاء في كل عصر تشتد فيه الفرقة بين أهله ويحتدم الخلاف ويصار الى القوة حكما في تغليب الرأي .

ومهما يكن من أمر ، فقد ذهبت حركة الاعتزال السياسي في العصر الاموي مذاهب مختلفة في التعبير عن أغراضها . وسايرت حوادث عصرها وتطورت معها لينا وشدة فقد بدأت في أول الامر حركة هادئة تتوسل بالنصيحة وتحذر قادة العمل السياسي وأتباعهم من مغبة الفتنة وتنذر بما ستأتي به أعمالهم من شر مستطير . حتى اذا وقع الامر الذي خيف وقوعه واندلعت الفتن باتت هـذه الحركة تلوم وتتقم وتؤنب . ثم لما استقرت الحياة العامة وهدأت الخواطر في أواخر العصر الاموي اتجهت حركة الاعتزال السياسي الى العمل الفكري والفلسفي وصارت مذهبا من مذاهب الفقه والكلام . ذلك لكي تضع الحوادث الماضية في أبوابها المناسبة من أبواب الاحكام الدينية .

وكان الشعر ، كما هو معروف ، وسيلة ذلك العصر للتعبير عما يجول في خواطر الناس مما له صلة بمواضيع حياتهم العامة . وكانت الخلافة وما يدور

---

٣ ـ فجر الاسلام ـ أحمد أمين ٢٨٨ ـ ٢٩١

حولها من حديث السياسة والحكم أظهر جوانب هذه الحياة بعد الذي أثارته من خصومات دامية في صفوف الامة . والذي وصلنا من الشعر السياسي الذي قيل في هذه الفترة يشير الى الدور الذي لعبه الشعر في حوادثها السياسية وأحاديثها في هذا الميدان . لقد أقيمت دراسات كثيرة حول هذا الشعر السياسي ، غير انهـا انصبت في جملتها وتفصيلها على الشعر الذي أنشأه الشعراء المشايعون لهـذا الفريق أو ذاك من المتخاصمين على السلطة ، سواء من تمكن منها أو من سعى للوصول اليها . وأغفلت هذا الشعر الذي عبر عن رأي الفريق الثالث من الامة ، الفريق الذي آله الانشقاق وحزت في نفسه الفرقة وأحزنته الدماء التي سالت في معارك الخصومة والمطامع . فآثر الاعتزال ونقم على الاحزاب وقادتها .

ونحن اذ نعرض لهذا اللون من الشعر لا بد لنا ان نشير الى قلة ما وصلنا من نصوصه ، والى ان هذه النصوص قد اقتصرت من حيث الشكل على الابيات والمقطوعات . ولعل هذه الابيات والمقطوعات هي بقايا قصائد لم يتح لها أن تعلق في أذهان الرواة حين شغلوا بشعر الديح والسياسة والقبيلة والاحزاب . أو انها لم تتجاوز في الاصل الشكل الذي نراه عليها اليوم اذ قيلت لتعبر عن آهة حزن أو أسف أو نقمة لا تتطلب نفسا طويلا يفرغ في قصيدة . ومهما يكن من أمر فالذي وصلنا من نماذج هذا الشعر يكفي للدلالة على ظاهرة هـذه الدعوة التي دعوناها بالاعتزال السياسي .

كان أول هذا الشعر دعوة تحذر الناس من التعرض لكيان الخلافة ومن الاطاحة بها أو جعلها هدفا تتناوشه نبال الخصومة . اذ هي النظام الذي يجمع شملهم ويحفظ عزهم ومجدهم ويوفر لهـم الامن والاستقرار وفي ظله تتجنب الامة سبل الزيغ والضلال . وقد علت هذه الصيحة حين ترصدت الفتنة لعثمان وبات الخليفة مدارا للطعن والتجريح وأضحى منصب الخلافة وما له من رفعـة وجلال موضوعا من مواضيع السياسة يديره الناس حسب تفاوتهم في الدوافع والنيّات . وفيما يروي الطبري من أخبـار هـذه الفترة المضطربة ان حنظلة الكاتب قام على محمد بن أبي بكر يلومه اذ لم يلحق بعائشة وقد دعته الى ذلك

حين تجهزت خارجة الى الحج هربا من الفتنة • فلما أجابه محمد بجفاء انصرف عنه وهو يقول[٤] :

عجبت لما يخوض الناس فيه ... يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ... ولاقوا بعدها ذلاً ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى ... سواء كلُّهم ضلّوا السبيلا

ويبدو ان قائل الابيات كان من الذين آثروا الابتعاد عن فتنة المدينة اذ انه لحق بالكوفة فيما يروي الطبري من خبره • والابيات كما هو واضح تعبر عن صيحة التحذير التي تعالت مع طلائع الثورة على عثمان ، والتي تولت تنبيه الناس الى خطورة النتائج التي ستنجم عن التعرض للخلافة • وواضح أيضا ان غرض هذا الفريق من تحذيره وانذاره لم يكن دفع الاذى عن شخص الخليفة بل غيرة منه على منصب الخلافة باعتبارها الرمز المقدس الذي تتمثل فيه مشاعر الامة وشعائرها • وصيانة له من أن تتقاذفه الخصومات فيهان وتهان الامة معه •

ولما قضي الامر ووقعت الواقعة بقتل الخليفة وبالصورة المفجعة التي روتها الاخبار ، عاد المحذّرون بالامس من عواقب الفتنة يتوعدون الناس بشر طويل ويتوجعون لما صاروا اليه من طيش وسفه وضلال ، وهم بعد ليس لهم من وسيلة لتدارك الحالة الا ان يسلموا الامر لله ، قال الحتات بن يزيد المجاشعي عم الفرزدق[٥] :

لعمر أبيك فلا تجزعن ... لقد ذهب الخير الا قليلا
لقد سفه الناس في دينهم ... وخلّى ابن عفّان شراً طويلا

وأبيات الشاعر تصور حالة القلق والاسى والاشفاق على ما اتجهت اليه

---

٤ ــ الطبري ٣/٤١٧

٥ ــ الطبري ٣/٤٤٩ وقد ذكر الحباب والصحيح الحتات وفد على الرسول (ص) في وفد تميم ومات في خلافة معاوية السيرة ٣/٢٠٦ ، البيان والتبيني ١/٥٩ .

الامة في مسيرتها الدامية المحزنة • فقد خلّى مقتل الخليفة شرا طويلا تمثله الفتن والاضطرابات والثورات التي شهدها العصر الاموي وتلك التي مهدت لقيامه • نذكر منها معركة الجمل ومعركة صفين وثورة المدينة على عهد يزيد بن معاوية وثورة الحسن بن علي عليه • ثم معركة مرج راهط واضطرابات البصرة بعد موته • وحركة التوّابين والمختار في العراق وحرب مصعب بن الزبير مع عبدالملك بن مروان وحملة الحجاج على عبدالله بن الزبير في مكة وثورة الاشعث وثورة يزيد بن المهلب وثورة زيد بن علي ، يضاف الى ذلك ثورات الخوارج التي لم تهدأ طوال العصر الاموي ومعارك القبائل القيسية مع القبائل التغلبية في الجزيرة والتي أثارتها السياسة الاموية حين اعتمدت على الثانية فأوغرت صدور الاولى لما بين الفريقين من عداء موروث منذ الجاهلية •

ويبدو ان صيحة المحذرين المشفقين على الامة والمحايدين الذين لم يكن لهم غرض في الازمة التي اجتاحتها قد اشتدت بعد وقوع الشر الذي حذرت من وقوعه بالامس وأخذت تعمل عملها في النفوس وتنبهها الى الاخطار بصورة أجلى وأجرأ • فبات الناس يسمعون دعوة مشوبة بالسخط على القادة الذين أثاروا هذه الخصومات والندم على التورط في معاركها والجهر بالدعوة الى اعتزالها • وقد بدأ شيء من هذا بالظهور على ألسنة الناس منذ انتهاء معركة الجمل بعد الذي شاهدوه من أهوالها وكثرة ضحاياها • قال شاعر شهد المعركة[٦] :

شهدت حروباً وشيبتني ... فلم أر يوماً كيوم الجمل
فليت الظعينة في بيتها ... وليتك عسكرَ لم ترتحل

والشاعر هنا اذ يشير الى هول المعركة وفداحة الخسارة فيها يتمنى بلهفة المفجوع انها لو لم تكن وقعت • ولكنها وقعت فعلا وشعر الذين نجوا منها سالمين أو مكلومين انهم انما سيقوا اليها دون ادراك لغاياتها وانهم كانوا فيها وقود نار أضرمها غيرهم فباتوا يعضون بنان الندم ولكن بعد فوات الاوان • وهذا ما عبر

---

٦ ـ البدء والتاريخ ٥/٢١٦

عنه عمير بن الاهلب الضبي وقد وقع في المعركة فمر به رجل فرآه يفحص الارض برجله ويقول[٧] :

لقد أوردتنا حومة الموت أمّنا فلم ننصرف الا ونحن رواء
أطعنا قريشاً ضلّةً من حلومنا ونصرتنا أهل الحجاز عناء

والشعر ، كما نرى مفعم بالحسرة ، مليء بالندم ، صريح في لومه لهؤلاء الذين ساقوا الناس للمعركة • ثم هو الى ذلك يشير الى قريش محملا اياها تبعة الدماء واثم القتلى • والى جانب هذه الاشارة التي تنم عن عصبية قبلية حانقة على قريش نجد اشارة أخرى الى عصبية من نوع جديد لم يعرفها المجتمع العربي من قبل ، ونعني بها عصبية الاقليم • وما تنطوي عليه من عواطف الولاء أو العداء تبعا للمواقف • فالشاعر هنا ينحى باللائمة على « أهل الحجاز » وسيشيع هذا النوع من العصبية في قابل الايام تبعا لتطورات الحوادث السياسية في الاقاليم فيتنادى الناس « أهل الحجاز ، أهل العراق ، أهل الشام » وحين تشتد الخلافات في الاقليم الواحد ستقوم عصبيات المدن فيقال « أهل المدينة ، أهل مكة ، أهل البصرة ، أهل الكوفة » • لاحظنا ان عاطفة من الضيق والحنق أخذت تطفح على الالسنة نحو قريش • وهي عاطفة باتت تقوى وتشتد كلما اشتدت الخلافات وكثرت معاركها • فقد أدرك فريق من الناس ان هؤلاء القادة الذين يحملون الناس على الاسهام في خلافاتهم الدامية ينتمون كلهم الى قريش على اختلاف بيوتاتهم الاموية والعلوية والزبيرية وهم حين يتخاصمون انما يفعلون ذلك من أجل الملك فدوافع الخصومات في ظاهرها الخوف والاشفاق على الخلافة والدين ، ولكن الغرض الحقيقي هو السعي الى الحكم وما يوفره من مغانم • وان هذه الامة حين تحترب وينحر بعضها بعضا فهي في نهاية الحساب انما تضحي بنفوس أبنائها لتحقيق النيات المبيّتة في نفوس القادة من قريش • وكان الشعر المعبر عن هذه الخواطر الجديدة في نفوس الامة صريحا في تصويرها وفي الدعوة الى اعتزال هؤلاء القادة والانفضاض عنهم •

---

٧ ـ الطبري ٣/٥١٣

قالت امرأة تبكي أولادها الثلاثة وقد قتلوا في صِفّين [٨] :

أعينيَّ جودا بدمـــعٍ سـرِب على فتيـــةٍ من خيـار العرب
وما ضرَّهم غير جنّى النفوس بأي امريء مـن قـريش غلَب

فهذه الام الثكلى اذ تبكي مصارع أبنائها انما تبكي على مصارع فتية آخرين من خيار العرب ضحوا بأرواحهم لا لشيء ، فيما ترى ، الا لتغلب هذا أو ذاك من زعماء قريش • ويبدو ان الدعوة الى الاعتزال والانفضاض عن الزعمـــاء المتناحرين على السلطة لم تقف عند اعلان الحسرة والندم على مصارع الذين غرَّر بهم هؤلاء القادة ، بل راحت تندد بالذين ينساقون وراءهم وتصفهم بالجهل وافتقاد العقل • وتصرح بنفاق هؤلاء الزعماء من قريش وزيف دعواهم وتفضح دجلهم • قال شاعر طائي في هذا [٩] :

وان امرءً يُعطي الاسنَّة نحره وراء قريش لا أعـدُّ له عقـلا
يذمّون لي الدنيا وقد ذهبوا بها فما تركوا فيها لملتمس ثُعْـلا

ويمضي هذا الشعر في تنبيه الناس وتبصرتهم في واقع الامر ويلح في دعوته طالبا اليهم اغماد السيوف وتجنب الفتنة • فالخصومة ، كما يرى أصحاب هذا الشعر ، خصومة داخلية تعني قريشا وحدها هذه القبيلة التي يتناحر رجالها على الزعامة في الامة والتي تثير من أجل هذا الهدف ، هذه الفتن كلها • فهو يدعو الى اعتزال هذه القبيلة والى تركها تحترب فيما بينها ما دامت تقتتل على ملك لها برَّه وعليها اثمه • والشعر التالي وهو لعلي بن الغـــدير الغنوي يصور نزعة الاعتزال هذه أصدق تصوير اذ يقول [١٠] :

من مبلغ قيس بن عيلان كلهـا بما احتاز منها أرض نجد وشامها
فـلا تهلكنكم فتنـة كل أهلهـا كحيران في طخياء داجٍ ظلامها
فشأن قريش والخصومة بينهـا اذا اختصمت حتى يقوم امامهـا

---

٨ ــ مروج الذهب ٢/٣٠
٩ ــ نفس المصدر ٢/٣٠
١٠ ــ نقائض جرير والاخطل/٢٣

هم أخذوها بين حتف معجّل ... وخطّة خسف لا تزال تسامها
فضمّوا جناحيكم الى مُرجحنّة ... معاً حربها ان حاربت أو سلامها
وشيمو سيوف الهند حتى تبينوا ... على أي أعداء يُسلّ سيوفها
وخلو قريشاً تقتتل ان ملكها ... لها وعليها برّها وأثامها
فان وسعت أحلامها وسعت لها ... وان عجزت لم تدم الا كلامها
فان قريشاً مهلك من أطاعها ... تنافس دنيا قد أحمّ انصرامها

ونود ان نشير الى ان الدعوة الى اعتزال قريش لم تكن بدافع عصبية قبلية صرفة • وانما اتجهت الصيحة نحوها باعتبارها القبيلة التي أثارت بيوتاتها الخصومات السياسية من أجل السلطة والتي ورطت الامة معها في هذه الخصومات ولو كانت هذه النقمة وليدة نزعة قبلية خالصة لاحجمت القبائل الاخرى منذ البداية عن الانسياق وراء قريش وقادتها • ولكنها دعوة علت واشتدت وكثر ترديدها حين أحس المنادون بها ان الاحزاب التي توزعتها بيوتات قريش انما تحترب من أجل ملك دنيوي لا بدافع غيرة على المصالح العليا للدين والامة وما دام الامر كذلك فلتترك اذاً وحدها في الميدان تتحمل نتائج الفتن والمعارك وليترك لها هذا الملك تديره غانمة أو آثمة •

واذا كانت النماذج التي أوردناها من شعر ظاهرة الاعتزال السياسي توحي في ظاهر الامر بأن عاطفة قبلية تخالط دوافعها ، فاننا نجد لونا آخر من هذا الشعر يصرّح ان اعتزال أصحابه انما كان بدافع التحرج الديني الذي يحرم قتل النفس بغير حق والذي لا يجد في مبررات السياسة ما يبيح له لاخذ بوسائلها ومن ثم التورط في معاركها فيتحمل اثم القتلى وهم ، بعد ، مثله مسلمون • وهذا ما يعبر عنه أيمن بن خريم[11] وكان قد اعتزل علياً ومعاوية حين يقول[12] •

---

١١ ــ من شعراء الدولة الاموية ، وفد على عبدالملك بن مروان وطلب اليه ان يخرج لحرب ابن الزبير فأبى . الشعر والشعراء /٥٢٦ ــ ٥٢٨ .

١٢ ــ وقعة صفين/٥٧٧ . الشعر والشعراء /٥٢٧ . ذكر ان الابيات كانت ردا من الشاعر على معاوية حين دعاه لمشايعته في حربه مع علي . وذكر ان الامر وقع للشاعر مع عبدالملك بن مروان .

ولست بقاتل رجلاً يصلّي على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعليّ اثمي معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً في غير جرم فليس بنافعي ما عشت عيشي

وخريم هذا هو القائل أيضا في شأن هذه الخصومات واعتزالها[١٣] .

ان للفتنة مْيطاً بيّناً فروید المیّط منها تعتدل[١٤]
فاذا كان عطاء فأتهم واذا كان قتال فاعتزل
انما يسعرها جهّالها حطب النار فدعها تشتعل

رأينا ان دعوة الاعتزال السياسي كانت تنطوي ، في كثير أو قليل ، على نقمة موجهة نحو قريش حتى ليبدو ان الامر كان ضربا من ضروب العصبية القبلية . ولكنه في حقيقته كان ظاهرة سياسية تردد في حديثها ذكر قريش ولومها لان هذه القبيلة ، كما قلنا ، كانت مدار الحياة السياسية في الفترة التي نعرض لاحداثها . فلما خرجت الفتنة عن نطاق قريش وتزعم بعض فئاتها أناس غرباء عن هذه القبيلة ، كزعماء الخوارج مثلا ، بدأت دعوة الاعتزال السياسي تصب نقمتها على مثيري الفتن دون حصرها في رهط أو قبيلة ذلك ان الامر لم يعد أمر خصومة تثيرها بيوتات قريش من أجل السلطة بل أصبح الامر يمس كيان الدين حين تعددت الطوائف والفرق الفكرية حوله . وحين تفرق المسلمون الى أحزاب وشيع يختلف الرأي بينها فيفزع كل منها الى السيف لتتخذه حكما في تغليب رأيها . ولهذا شرعت فكرة الاعتزال تضمن دعوتها فكرة العودة الى الاسلام في صورته الاولى مستنكرة ومنكرة لآراء الطوائف والفرق التي احتكمت الى السيف فمزقت الامة . ومن الشعر الذي جهر بالدعوة الاعتزالية في هذا المعنى ما قاله الصلتان العبدي[١٥] .

---

١٣ ـ الشعر والشعراء /٥٢٧
١٤ ـ الميّط : المَيل .
١٥ ـ الصلتان العبدي من شعراء الدولة الاموية . الشعر والشعراء/٤٧٥ـ٤٧٩، خزانة الادب ٢/١٥٨ ـ ١٥٩ . والابيات في الكامل ٢/١١٨ .

أرى أمّـــة شهرت سيفهـــا وقد زيدفي سوطها الأصبحي[١٦]
بنجـــــدية وحـــروريّـــة وأزرق يدعـو الى أزرقـي[١٧]
فملتنـــا أنّنـــا المســـلمون عـلى دين صـــدّيقنا والنبـي

ومن هذا الشعر أيضا قول اسحاق بن سُويْد الغنوي[١٨] :

برئت من الخوارج لست منهم من الغـزّال منهـم وابن باب
ومـن قوم اذا ذكـروا عليـاً يردون السـلام على السـحاب
ولـكنّي أحبُّ بـكل قلبـي وأعـلم ان ذاك من الصواب
رسـول الله والصـدّيق منهـم به أرجو غـداً حسـن الثواب

ومهما تباينت ظواهر هذه الحركة فدوافعها تلتقي في رغبة تنزع الى الحياد بعد أن ذاقت الامة ما ذاقته من ويلات بفضل البيوتات والطوائف والفرق التي حامت شهواتها حول السلطة • وهي رغبة بدت نادمة في أول الامر بعد أن تحملت ثقل الورطة • ثم مضت لائمة بعد أن أحست بالتضليل وانتهت ناقمة بعـد أن أدركت هول الخسارة وراحت بعد ذلك تضج بالدعوة الى العودة الى مثـل ما كانت عليه الامة الاسلامية في أيامها الاولى من دعة وأمن ووئام والفة وتواد •

على هذا النحو سارت حركة الاعتزال السياسي في العصر الاموي وسار الشعر معها يعبر عن عواطفها في كل مرحلة من مراحل تطورها ومضى الفريق الذي انضوى تحت لوائها من الامة ، لهذا أو لذاك من الاسباب ، يتمثل بمثل ما تمثل به سعد بن أبي وقاص حـين دعاه بعضهم لمبايعته خليفـــة بعـــد مقتل عثمان[١٩] •

لا تخلطن خبيثـات بطيّبـــةٍ واخلع ثيابك منها واثجُ عريانا

---

١٦ ــ الاصبحي نسبة الى ذى أصبح من ملوك اليمن .
١٧ ــ النجدية والحرورية والازارقه فرق من الخوارج ، الاولى نسبة الى نجده بن نافع زعيمها . والثانية الى قرية حروراء والثالثة اتباع نافع بن الازرق.
١٨ ــ البيان والتبيين ٣/١ وقد ذكرت الابيـات في الكامل ١٣٢/٢ على انهـا « لاعرابي لا يعرف المقاولات التي يميل اليها أهل الاهواء » .
١٩ ــ الطبري ٤٥٤/٣

المراجع

١ ـ البدء والتاريخ ـ المقدس مطهر بن طاهر ، ت : هوار ، ٦ اجزاء باريس ١٩١٦ .

٢ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر ، ت : عبدالسلام محمد هارون ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٦٧/١٩٤٨ .

٣ ـ تاريخ الامم والملوك ـ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير ، مطبعة الاستقامة ، ١٥ جزء القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٩ .

٤ ـ خزانة الادب ـ البغدادي عبدالقادر بن عمر ، ت : المطبعة السلفين ، ٤ اجزاء القاهرة ١٣٤٧ .

٥ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ، ت : مصطفى السقا ، ٤ اجزاء، القاهرة ١٣٥٥/١٩٣٦ .

٦ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ، ت : أحمد محمد شاكر ، الجزء الاول ، القاهرة ١٣٦٤ .

٧ ـ الطبري = تاريخ الامم والملوك .

٨ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ، ت : أحمد امين ، ٦ اجزاء ، القاهرة ، ١٣٦٣/١٩٤٥ .

٩ ـ فجر الاسلام ـ أحمد امين ، جزء واحد ، القاهره ١٣٦٤/١٤٥

١٠ـ الكامل ـ المبّرد ابو العباس محمد بن يزيد ، ت : المكتبة التجارية الكبرى،جزءان القاهرة١٣٥٥

١١ـ مروج الذهب ـ المسعودي ، جزءان ، القاهرة ١٣٤٦ .

١٢ـ نقائض جرير والاخطل ـ ن : الأب انطوان صالحاني ، جزء واحد ، بيروت ١٩٢٢ .

١٣ـ وقعة صفين ـ المنقري نصر بن مزاحم ، ت : عبدالسلام محمد هارون ، جزء واحد القاهرة ١٣٦٥ .